الحياة العلمية والثقافية في منطقة توات خلال القرنين 18و19
مصادرها وبعض مظاهرها

أ. بوسليم صالح*

على الرغم من أهمية موضوع الحركة العلمية والحياة الثقافية في الجزائر بصفة عامة و المناطق الداخلية على وجه الخصوص، إلا أنه لم يحظ باهتمام الباحثين بالقدر الذي يستحق، إذ لم تخرج إلى الآن دراسات علمية تحليلية حديثة حول هذه الجوانب المهمة من تاريخ المجتمع تنير للدارسين معالم الحياة الثقافية في البلاد وتعالج معالجة جدية طبيعة مستوى الحياة العلمية وتساعد في التوصل إلى معرفة مساهمات بعض العلماء في مجالات الأنشطة الثقافية والعلمية في القرون الماضية، ولعل من بين الأسباب في العزوف عن الخوض في مثل هذه المواضيع ما يرجع بطبيعة الحال إلى قلة بل ندرة المصادر ذات العلاقة من ناحية وصعوبة الحصول عليها من ناحية أخرى.

وفي الآونة الأخيرة بدأت تظهر بعض المحاولات الأولية لبعض المؤرخين الذين حاولوا التعرض لموضوع الحياة الثقافية في المناطق الداخلية من البلاد[2]. فاهتموا بالبحث عن المخطوطات والوثائق المتعلقة بهذا الموضوع، ولحسن الحظ فقد أسفرت تلك المحاولات عن بعض النتائج المشجعة تمثلت في إبراز بعض معالم الحياة العلمية في بعض المناطق الداخلية من ناحية ونبهت إلى احتمالية وجود قدر كبير من الوثائق و المصادر المتعلقة بدراسة بعض الأنماط من تاريخ البلاد الاقتصادي و الاجتماعي والثقافي، و التي لازالت لم تستغل بعد في دراسة هذه الجوانب من التراث الوطني.

وما من شك في أن العديد من المناطق الداخلية بقراها وواحاتها كانت لها اهتماماتها ومساهماتها وعطاؤها في مجال الحياة العلمية والثقافية خلال تلك الفترة ،كل بحسب الظروف التي توفرت لديها ومن واقع ما أتيح لها من إمكانيات وعوامل مساعدة لممارسة هذا المظهر من مظاهر الحياة في المجتمع. ولا يمكن معرفة وتقدير أهمية الحياة العلمية في مثل هذه المناطق إلا إذا درست بعمق من خلال الظروف الاجتماعية و الأوضاع الاقتصادية وهذا لايتأتى إلا بالكشف عن المخطوطات والوثائق المختلفة والتي من بينها أعمال بعض العلماء و الفقهاء الذين اشتهروا في هذه المناطق خلال الفترات التاريخية المتعاقبة.

وفي هذا البحث سأحاول إعطاء نبذة مختصرة عن بعض معالم الحياة الثقافية في توات خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر الميلاديين من واقع الأعمال العلمية لبعض العلماء الذين اشتهروا بنشاطهم العلمي. ورغم أن منطقة توات لم تكن خاضعة للحكم العثماني إلا إنها تفاعلت معه في معظم النواحي الفكرية و الثقافية

*- جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس.

والروحية[3]، وكانت توات منذ تاريخها المبكر منارة للعلم وسط الصحراء الأفريقية الكبرى وذلك بفضل إسهامات علمائها الذين نبغوا في العديد من العلوم و المعارف الدينية.

ولقد ارتبط النشاط العلمي والثقافي في مناطق توات خلال تلك الفترة بوجود بعض الفئات الاجتماعية المميزة تمثلت في عدد من الأسر والعائلات و الأفراد الذين كانوا في الأعم الأغلب ينحدرون في نسبهم إما من فئة الأشراف[4] المتصل نسبها بالرسول عليه الصلاة والسلام، وإما أنهم كانوا من فئة أهل الجاه والبركة، الذين كوّنوا لأنفسهم شهرة في التقوى والاستقامة والورع والكرامات و الاهتمام بالمسائل الدينية.

وبحكم اهتماماتهم العلمية فإن عددا من هؤلاء العلماء تركوا كثيرا من المخطوطات و الأوراق التي تعبر عن اهتماماتهم العلمية وأنشطتهم الثقافية، وعليه فإن المصادر الأساسية المتعلقة بتاريخ الحياة الثقافية في منطقة توات توجد حتما على هيئة مخطوطات بعضها في الأعم الأغلب محفوظ في بعض المكتبات الخاصة[5] العائدة إلى بعض الأفراد والأسر الذين ورثوا الإهتمام بحفظ المخطوطات، والبعض الآخر يوجد متناثرا في بعض مكتبات الأوقاف والمؤسسات الدينية التي كانت تقوم بدور مهم في عملية نشر التعليم في القرون الماضية كالمساجد والكتاتيب والزوايا وغيرها.

وفي أثناء إعدادنا لهذا البحث والتفتيش عن بعض المصادر المتعلقة به تمكنا من الحصول على عدد متواضع من الوثائق و المخطوطات والتي إعتمدنا عليها إعتمادا كبيرا في تطوير هذه الدراسة، وذلك بفضل مساعدة بعض أصحاب الخزائن[6]. وهذه الوثائق تمثل نتاج الأعمال العلمية لعدد من العلماء الذين وهبوا أنفسهم للعلم في تلك المراكز العلمية و الثقافية المنتشرة عبر أرجاء المناطق التواتية خلال الفترة ما بين القرنين الثامن عشر و التاسع عشر للميلاد.

إن هذه الوثائق في مجموعها يمكن تصنيفها إلى ثلاث مجموعات رئيسية:

المجموعة الأولى، تتألف من المخطوطات الكاملة التي ألّفها أو نسخها بعض العلماء في محيط اهتماماتهم العلمية، والمجموعة الثانية تتعلق بالتراجم، أما المجموعة الثالثة فتشمل العديد من الأوراق المتفرقة والتي تحتوي على موضوعات متعددة أغلبها يتعلق بالمسائل الدينية.

ومن خلال الإطلاع على هذه الوثائق وفحصها إتضح للباحث أن عوامل التآكل والتلف قد أثّرت بطريقة أو بأخرى في شكل ومحتوى هذه الوثائق النادرة، خاصة في الأوراق المنفردة وهذا بطبيعة الحال راجع إلى عامل الزمن، وانعدام الإمكانيات و الوسائل اللازمة لحفظ الوثائق و المخطوطات.

وعليه فإن جانبا من هذه الأوراق يوجد الآن في شكل متهلهل، خاصة الأوراق المتفرقة ولاشك أيضا أن جزءا منها قد ضاع[7] والبعض أوراقه هشة لا تحتمل اللمس وجزء آخر قد نالت منه دابة الأرض. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن وضعية وظروف حفظ المصادر تنطبق بطبيعة الحال على وضعية أغلب الوثائق والمخطوطات التي لم يكشف النقاب عنها في مختلف المناطق، ومهما يكن من أمر فان جزء لا بأس به من هذه الوثائق لازال في صورة

جيّدة، ويمكن الإعتماد عليه في تطوير العديد من الأبحاث والدراسات المتعلقة بالنشاط العلمي في المنطقة، إذ أنها في مجموعها تعد مادة وثائقية مهمة، تعين على دراسة الحياة الثقافية والاجتماعية والتعرف حتى على بعض أوجه الحياة الاقتصادية في منطقة الجنوب. وبحكم قلة المكتوب عن تاريخ المنطقة بصفة عامة وعن موضوع الحياة الثقافية و العملية على وجه الخصوص، فان الوثائق الخاصة تعد ذات قيمة استثنائية لبحث ودراسة الحياة العلمية والثقافية في هذا الجزء من البلاد، فضلا عن أهميتها الكبرى لدراسة التاريخ المحلي المتعلق مباشرة بحياة أبناء المجتمع في هذه المنطقة.

إن مجرد تصفح الوثائق المشار إليها أعلاه و الإطلاع على محتوياتها، يعد من بين العوامل المهمة التي تعين الباحث على معرفة بعض جوانب الحياة الثقافية، فعلاوة على ما تحويه تلك الأوراق من معلومات علمية وثقافية، فإنه بإمكان الباحث أن يفهم الأساليب و المنهجية التي إتبعها علماء تلك الفترة في تدوين معلوماتهم وتناول موضوعاتهم ،وكذا التعرف على المستوى الثقافي العام لأولئك العلماء والكتّاب ومدى تبحرهم في اللغة وقدرتهم على التعبير ،ومعرفة أنواع الورق الذي استخدموه والحبر الذي كتبوا به، وملاحظة التباين بين النساخ في إخراج المخطوطات، و الغاية من استخدام الحبر الملون وبعض العلامات المميزة في كتابة المخطوطات، إضافة إلى معرفة العقلية الثقافية التي كانت مسيطرة في الفترات التي كتبت فيها تلك المخطوطات.

وخلاصة القول، أن أهمية مجموعة الوثائق المشار إليها أعلاه تمكن في أن محتوياتها تتصل إتصالا مباشر بموضوع الحياة الثقافية والعلمية في توات في الفترة المعنية بالدراسة ،وتبين بوضوح المستوى العلمي والثقافي في المنطقة، وتتضمن بعض الجوانب الأخرى المتعلقة بأنماط حياة الأفراد في المجتمع.

ومن خلال دراستنا لمجموعة الوثائق سالفة الذكر وحصر طبيعة محتوياتها وجدنا أن أفضل طريقة لإبراز بعض معالم الحياة العلمية والثقافية في توات هو مناقشة الموضوع من خلال أعمال ومساهمات بعض علماء المنطقة الذين اشتهروا بنشاطهم في المجال العلمي، وعليه فقد اخترنا أربعة من علماء توات الذين برزوا في مجال التأليف والاهتمام بالعلم وعاشوا في الفترة ما بين القرن الثامن عشر و التاسع عشر(12هـ/13هـ)، وهؤلاء هم: الشيخ محمد بن أبّ المزمري (ت 1160هـ)، والشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني (ت 1189هـ)، والشيخ البكري بن عبد الرحمان بن الطيب التنلاني (ت 1339هـ) ، و الشيخ محمد بن العالم الزجلاوي (ت 1212هـ).

ا – الشيخ محمد بن أبّ المزّمري[8]:

يعد الشيخ محمد بن أبّ من ألمع علماء عصره في مناطق توات الثلاث (قورارة — توات – تيديكلت)، ولد في قرية أولاد الحاج– إحدى قصور بلدية تمقطن – في العقد الأخير من القرن الحادي عشر للهجرة (ق 18م) ،حيث تلقى تعليمه الأول بمسقط رأسه ثم انتقل إلى قصر زواية كنته[9] التي أقام بها مدة طويلة فاستفاد من شيوخها لينتقل بعدها إلى تمنطيط[10] ليتم بها دراسته فنهل العلوم من أساتذتها و مشايخها ثم سافر إلى عدة أقطار عربية وإسلامية ولازم كبار العلماء حتى أصبح من خيارهم ،وعاد إلى توات واستقر به المقام في مدينة تيميمون[11] إلى أن

توفي بها عام (1160 هـ) ولم يقتصر الشيخ ابن أبّ جهده على تحصيل الإجازات العلمية والأدبية من علماء توات ،رغم أنه حفظ القران الكريم وأخذ دروسا في اللغة العربية وعلم الحديث وغيرها، إلا أنّ حبه للعلم ورغبته في التبحر في بعض فروع المعرفة وثقافة عصره جعله لم يكتف بما حصل عليه من علم في البيئة التي نشأ فيها ،وعليه فقد توجه إلى سلجماسة وفاس بالمغرب الأقصى، وقد إلتقى أثناء زيارته لمدينة سجلماسة بالشيخ أبي إسحاق سيدي إبراهيم، وتلقى خلالها دروسا كثيرة في العلوم الإسلامية واللغة العربية وغيرها ،وعاد بعدها إلى أرض توات[12]. ثم ارتحل إلى تمبكتو وأروان بصحراء مالي (بلاد السودان الغربي)، من أجل نشر الدعوة الإسلامية.

ونظرا لما اشتهر به الشيخ محمد بن أبّ من صفات حميدة ،ولما اكتسبه من مكانة علمية واجتماعية في توات، فقد أصبح محل تقدير واحترام، وفي هذا الصدد يقول عنه تلميذه الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني (ت 1189هـ): "كان متقنا مجيدا فطنا عارفا يباحث الشراح في مجلسه بأحسن بحث، إلا أنه كان قليل الإقراء، ضجورا على الطلبة ،وكان رحمه الله ورعا في الفتوى ،لا يكاد يجيب في نازلة ويحمل على غيره ولو كان أدنى منه، وكان كثير المطالعة لا تكاد تجد كتابا بتوات إلا وتجد خطه فيه، وكان متقنا في الضبط لا يتساهل فيه"[13].

لقد كان بن أبّ بحق شاعرا مفلقا لغويا تصريفيا عروضيا رائق الخط، وقد قام بعدد من الدراسات والأبحاث كما نظم العديد من القصائد الرجزية في الفقه والنحو وعلم الكلام والمدائح والابتهالات الدينية ،ومن أشهر مؤلفاته نذكر:

* أرجوزة في التصريف سماها: روضة النسرين في مسائل التمرين[14]
* نظم باب السهو سماه"العبقري" وهو من مختصر الأخضري[15] في العبادات، ويحتوي هذا النظم على(159) مائة وتسعة وخمسون بيتا.
* نظم مقدمة إبن أجروم[16]والتي نظمها سنة1120هـ.
* نزهة الحلوم نظم منشور مقدمة ابن أجروم.
* له نظم ثالث لمقدمة إبن أجروم في النحو من بحر الطويل سماه "كشف الغموم".

وله أرجوزة في علم الكلام بدأها بقوله: [17]

حمدا لمن في ملكه تواحدا وجل عن تحصيل من قد فقدا
ثم صلاة الواحد الحي الصمد على الرسول المصطفى بلا أمد
وآله الكرام مع صحابه وكل من غيه صحا به

ومؤلفات الشيخ لو جمعت لكانت ديوانا ضخما وأغلبها أشعار ونظم في شكل متون، وله مميزات في الشعر لم يظفر بها غيره من الشعراء ولذا قال في عنفوان شبابه مخبرا عن حاله:

إذا ساد بالإقدام عمرو وبالذكا تفرد إياس وبالجود حاتم

فإن شعاري صنعة الشعر فالذي ينـاز عـني فيهـا فـذلك ظـالم

وهكذا صار إبن أبّ المزمري، من بين العلماء المشهود لهم بغزارة العلم والمعرفة في مجال العلوم الدينية وهو العالم الوحيد الذي ربط بين مناطق توات الثلاث وغيرها، فمولده كان بتديكلت، ومنشأه وتعلمه بتوات ،واستقراره وتعليمه بقورارة، حيث كانت مدينة تيميون هي مثواه الأخير أين يوجد قبره الذي يعرف" العبقري" وأصبح مزارا طلبا للتبرك وللترحم عليه.

ب – الشيخ البكري بن عبد الرحمان بن الطيب التنلاني[18]:

كان من بين علماء توات المشهورين بالعلم والمعرفة، ولد في أواخر القرن الثاني عشر للهجرة وتحديدا سنة 1260 هـ/1843م وتوفي سنة 1339هـ / 1920م.

بدأ العلم منذ صغره فتتلمذ على يد شيخه وخاله الشيخ الحسن بن سعيد البكري (ت 1292هـ) ،وأخذ عنه علوم اللغة العربية وأدبها ،والعلوم الدينية كالفقه والتفسير والحديث غير ذلك ،وقد أجازه إجازة حافلة في التدريس.وبرزت بعد ذلك شهرته العلمية في مجال اللغة والأدب والعلوم الدينية وتأليف المنظومات الرجزية في التوحيد والحديث والفقه وغيرها، وله نظم سماه:" المعيار في ذم الاستقصاء للنظار"[19] يقول في مطلعه:

الحمد لله الذي قد جعلا صبح نهار الحق بيّنا جلا

ثم يقول في موضع أخر:

سمّيته المعيار للأفكار في ذم الاستقصاء للنظار

وله قصيدة في هجاء فرنسا عند دخولها لتوات نظما وبعدها نثرا[20] يقول في مطلعها:

رب إن فرنسا الكفر جاروا في توات و جازفوا بفساد

ختلوا قتلوا أمة توحد ربا واحدا أحدا بلا أضداد

ثم يقول في مطلع آخر:

ربّ إنك قلت هم خير أمة أخرجت فانصرن بنصر يباد

قد رددت لنسل يعقوب فيما قد مضى كره على أوغاد

فلأمة أحمد أكرم الخلق عليه وأصفى في كل ناد

لقد كان رحمه الله عالما متضلعا في الفقه واللغة والنحو وعلم العروض وعلم المواريث، يقال أنه إذا سئل عن مسألة يقول للسائل تريد الجواب نظما أو نثرا ،كذلك إذا سئل كتب وثيقة يقول للسائل تريد الوثيقة نظما أو نثرا[21] لأنه كان بحرا فيّاضا زاخرا، توفي رحمه الله بالزاوية البكرية طلوع فجر الأربعاء أوائل جمادي الأول عام 1339هـ / 1920م.

ج – الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني:

ومن أشهر علماء توات الذين تركوا لنا أعمالا علمية كثيرة تستحق الدراسة والبحث، الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني، الذي عاش في القرن الثاني عشر الهجري (18م) ،كان عالما عاملا حافظا ثاقب الذهن، فصيح اللسان ذكره صاحب (الدرة الفاخر) فقال فيه: "كان رضي الله عنه عالم العصر"[22] كما ترجم له صاحب كتاب (جوهرة المعاني) فقال عنه: "شيخ الشيوخ وبقية الرسوخ العالم العلامة البحر الفهامة، علم الأعلام ومرشد الإسلام ،كان رحمه الله عالما عاملا، حافظا ثاقب الذهن ،صحيح العين، فصيح اللسان،رحب الجنان ،مع عفة وصيانة، ووقار وديانة، قطب الشورى، انتهت إليه رياسة الفقه بالديار الصحراوية ،وكان من مجتهدي عصره في المذهب المالكي ،صادق في القول ثابت في النقل... "[23]

لقد أمضى هذا الشيخ أغلب حياته في طلب العلم، وقد تبحر في العديد من الموضوعات المتعلقة بأصول الدين والشريعة الإسلامية، وله أعمال كثيرة في الفقه والنحو والفلك والتراجم وغيرها. وأغلب تلك الأعمال جاءت على شكل منظومات رجزية جميلة مطولة ،يظهر عليها فن الإبداع في ترتيب الأفكار ومعالجة القضايا المراد توضيحها.

ومن أبرز أعمال الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني العلمية، والتي تعد من بين المصادر النادرة بالنسبة لدراسة واقع الحياة العلمية في المنطقة، هو مؤلّفه المخطوط الموسوم بـ: "رحلة عبد الرحمان بن عمر التنلاني"[24]،كما ألّف مذكرة رحلته للحج[25] إبتداء من بلده قصرتنلان حيث ذكر فيها جميع الأماكن التي نزل بها ،والرجال الذين إلتقى بهم في طريقه للحج سواء في توات أوفزان أو في القاهرة أوفي الديار المقدسة، إلى أن رجع إلى مصر وتوفي بها [26] في طريق العودة يوم الأحد 29 من صفر سنة 1189هـ / 1774 م ، ودفن بمقبرة الإمام الشيخ سيدي عبد الله المنوفي رحمه الله.

و قد رثاه الكثير من فطاحلة شعراء توات، من بينهم الشاعر البليغ، الشيخ محمد بن المبروك البوداوي (ت 1196هـ) الذي رثاه بقصيدة رائعة من بحر الوافر يقول في مطلعها: [27]

ألا يامصر قد إزددت فخرا بحبر حل مقبرة المنوفي

بعيد زيارة الهادي الممجد وحج البيت حقا والوقوف

تضلع باللوم وكان دهرا يدرسها القريب مع الضيوف

ويقصد بالنوازل كل يوم فيكشف ماعليها من نصيف

ومن تآليفه شرحه لكتاب"الدر المصون في علم الكتاب المكنون"لشهاب الدين المشهور بالسمين[28]، يقول في مقدمته بأنه حذف منه البيان واكتفى بالإعراب والصرف واللغة، ورتّبه ترتيبا أبجديا ،ابتدأه بقوله:

" أعوذ من العوذ (عاذ) ثلاثي مجرد أجوف ". . الخ، وله تأليف آخر باسم " مختصر السمين في إعراب القرآن الكريم" يشرح فيه معاني مفردات القرآن. [29]

وللشيخ تلامذة كثيرون نذكر منهم ولديه الشيخ سيد محمد الذي كان خليفته ووارث سره، وصنوه الشيخ عبد الله ،والعلامة الشيخ محمد بن عبد الرحمان البلبالي. . الخ

ولعل ما يميز الشيخ عبد الرحمان بن عمر عن غيره من بعض علماء عائلته، هو أنه كان له اهتمام خاص ووجهة نظر مميزة حيال تقدير قيمة العلم وأهميته بالنسبة لأبناء المجتمع ،فنجده يؤكد على ضرورة طلب العلم والتعليم والإشادة بدور العلماء مناقبهم واستدل في مقدمة مخطوطه "رحلة عبد الرحمان بن عمر التنلاني" على فائدة العلم فقال: " الحمد لله الذي شرّف العلم وجعل له أهلا، والصلاة والسلام على من طاب فرعا وأصلا، وعلى آله الأطهار ،وصحابته الأخيار، وبعد فقد كنت في حال صغري مشغوفا بالعلم مولعا بطلبه ومشتغلا بقراءة الشيخ خليل وألفية ابن مالك مقبلا إلى ذلك متشوقا إلى شيخ يحل لي ألفاظهما ويوفقني على معانيهما.[30]

ثم أشاد بعد ذلك بضرورة السفر في طلب العلم مشيرا إلى بعض الأحاديث المروية عن الرسول التي تؤكد على ضرورة طلب العلم، وقد حصل على العديد من الإجازات العلمية، منها ما أجازه به شيخه محمد بن أبّ المزّمري، ومما جاء في إجازته ما نصه:

" الحمد لله وبعد فقد أذنت للشاب الفقيه الأديب اللوذعي الألمعي النجيب الصالح الخيّر الكوكب النيّر أبي زيد السيد عبد الرحمان التواتي نفعني الله وإياه بالعلم وحمله وجعلنا من أخيار أهله بمحض جوده وفضله أن يحدث عني بجميع ما التمس فيه الإذن مني أجازة تامة وكتب عبيد ربه محمد أبّ المزّمري التواتي وفقه الله ".[31]

د- **الشيخ محمد بلعالم بن أحميدان الزجلاوي:**

كان من العلماء البارزين بتوات حتى ذاع صيته، وقد ذكره صاحب (الدرة الفاخرة) فقال عنه: "كان رحمه الله أحد الأعلام وأحد المجتهدين في عصره، كان عالما بالفرائض وعليه مدار الفتوى، انتهت إليه الرياسة في الديار التواتية".[33]

وذكر عنه الكثير من الأوصاف في العلم والأخلاق، حيث قال لولا خوف الإطالة لأوردت من خبره طرفا كبيرا.

درس على يد شيخه السيد عبد الرحمان بن عمر التنلاني، وعلى يد الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني، الذي أخذ عنه الفقه والنحو والمنطق و علوم القرآن.

من أهم إنتاجه العلمي نذكر: - ألفية الغريب[34]

- نوازل الزجلاوي

ويعد هذا الكتاب الأخير مساهمة علمية تستحق الدراسة والبحث، وهو إنجاز أثرى به أدب النوازل في منطقة توات ،كما كانت له إجتهادات في كيفية حساب أوقات الصلاة، وله شرح على التلمسانية في الفرائض، وشرح على المرشد المعين، وفتاوى وقصائد لا يمكن حصرها. لذا نجد الشيخ الزجلاوي قد جمع بين الشعر و

المعرفة ،و الفقه والنحو ،وكثير من الفنون العلمية، من خلال المصادر المنوه عنها أعلاه، وفي ضوء التراجم المختصرة للعلماء المشار إليهم فيما تقدم ،يمكن تحديد بعض المظاهر الثقافية والاهتمامات العلمية التي كانت سائدة في منطقة توات، فقد اتضح أن الفترة ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد، قد تميزت بظاهرة أن العلم في أغلب الأحيان كان يطلب لذاته في المناطق العربية الإسلامية، وأن طلبة العلم كانوا ينتظرون إلى التحصيل العلمي خاصة العلوم الدينية على أنه واجب ديني يهم كل مسلم، ومن ثم فإن الرغبة في طلب العلم والإهتمام بالتبحر في فروع المعرفة المتيسرة و التزود بثقافة العصر دفع ببعض علماء توات إلى السفر إلى بعض الحواضر العربية من أجل تحقيق ذلك الهدف، وكانت تسير و تقاليد وأنماط الاهتمامات العلمية السائدة في مختلف المناطق العربية والإسلامية التي تركز جزء كبير منها على تعلم حفظ القرآن ودراسة العلوم الدينية وعلم الحديث والتراجم و ما شبهها[35].

وحيث أن النشاط العلمي والثقافي خلال القرون الماضية في المنطقة العربية والإسلامية، كان لا يخضع إلى قوانين سياسية ولا إلى مراقبة من السلطات الحاكمة، ولم تكن هناك أي موانع تحول دون تنقل العلماء وطلبة العلم، وعموما فان الحياة العلمية في منطقة توات لم تكن في معزل عما كان يجري من نشاط علمي وثقافي في المناطق العربية الأخرى. ولذا فإن من أهم المظاهر الثقافية التي برزت في منطقة توات خلال الفترة المشار إليها هي ظاهرة الإتصال العلمي والثقافي المستمر بين كثير من علماء المنطقة وأمثالهم من أهل العلم وبين المؤسسات العلمية في الحواضر العربية و الإسلامية كالقاهرة وفاس وسجلماسة وتلمسان و قسنطينة وتونس وطرابلس وتمبكتو وأروان وغيرها. وذلك الإتصال كان يتم بعدة طرق منها تبادل الرسائل والفتاوى بين القضاة، وأخذ الرأي في بعض المسائل الدينية بين علماء ومشايخ المنطقة، وبين غيرهم من العلماء والقضاة من خارجها، ومنها السفر لطلب العلم والتتلمذ على مشاهير العلماء والفقهاء في الأماكن المشهورة كجامع القرويين والأزهر والزيتونة وغيرها.

ويمكن للباحث التعرف على طبيعة العلاقة الثقافية والعلمية التي كوّنها بعض علماء توات مع بعض العلماء والمؤسسات العلمية في خارج منطقتهم من خلال سيرهم العلمية واتصالاتهم بمراكز العلم وورود أسماء بعض العلماء المشهورين الذين أخذوا عنهم العلم. ولنا في شخصية الشيخ محمد بن أبّ المزّمري خير مثال على ذلك.

ومن معالم النشاط العلمي لبعض علماء توات هو الاهتمام الكثير بتضمين المنظومات الرجزية والقطع الشعرية في أغلب أعمالهم العلمية. ومما يستدعي الانتباه إلى هذه الظاهرة هو أن كثيرا من تلك المنظومات جاءت في أبيات مطوّلة يصل بعضها أحيانا إلى الأكثر من مائة بيت، فمثلا الشيخ ابن أبّ المزّمري كانت له منظومات عدّة، في التوحيد وأصول الدين والعبادات والمواعظ وغيرها.

ومن أشهر منظومات إبن أبّ تلك التي نظمها من نحو مائة وتسعة وخمسين (159) بيتا في باب السهو في الصلاة من مختصر الأخضري، ومن أشهر منظوماته أيضا تلك التي تضمّنت أبياتا عشرة تقرأ من الجهتين من اليمين إلى اليسار والعكس افتتحها بقوله[36]:

أدر كـــلام كـــابر ربـــاك مالـــك ردا

أدب وكـف أرسـنا إن سـر إفـك وبـدا

إلى أن قال في آخرها:

إدفـن إهانـة أذى إذا تنـاهى نفـدا

كما يتمثل دوره الفكري في إنشائه البحر الجديد الذي سماه" المضطرب"

واختار له وزن:

فعولن مفاعلن فاعلات فعولن مفاعلن فاعلات

وأنشد فيه قصيدة يقول في مطلعها:[37]

صلّ يـا إلهـي ثم سلّم دائمـا علـى خـير الأنـام

مـا دعـاك أولبّـاك محـرم قاصـدا الى البيـت الحـرام

وهذا النمط من التأليف النظمي نجده أيضا في أعمال كل من الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني ،والشيخ البكري بن عبد الرحمان بن الطيب التنلاني، والشيخ محمد بن أحميدان الزجلاوي، فأغلب الأعمال التي إطّلعنا عليها لهؤلاء المشايخ المتعلقة بالفقه و العبادات والقضايا الاجتماعية ذات العلاقة بأمور الزواج والطلاق، وبعض الأمور المتعلقة ببعض الأنشطة الاقتصادية وسيرة الرسول وغيرها، جاءت أغلبها في صورة منظومات منمّقة وشيّقة يصل بعضها إلى مئات الأبيات، وينطبق نفس الوضع على أعمال الشيخ المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي (ت 1226 هـ)، والشيخ محمد بن البكري بن عبد الكريم (ت 1188 هـ)، والشيخ البكري بن عبد الكريم (ت 1133 هـ) وغيرهم. فقد اشتملت أعمالهم التي أنتجوها في العلوم الدينية واللغة العربية على كثير من المنظومات الشعرية، علاوة على منظومات أخرى منها في المدح ومنها في الرثاء، ومن بين من رثى العلاّمة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني أحد تلامذته الشيخ محمد بن أحميدان الزجلاوي بقصيدة يقول فيها: [38]

وإذا ذكـرت مـن الحـوادث جمّـة فـاذكر رزيـة لارزيـة عوضـها

واذكـر أبـا زيـد وروعـة فقـده وتلهـف الإسـلام منـه ورحضـها

إن كـان لا يبكيـك حسـن مثالـه فـازدب لقسـوتك العيـون وحضـها

يـاعين جـودي بالـدموع لفقـد مـن لمصـابه بكـت السـماء وأرضـها

نجـم الهوايـة والرمايـة التقـى طفـلا وشـيخا قـد تبـوّأ روضـها

ويبدو أن ظاهرة الاهتمام بالمنظومات الرجزية والمقطوعات الشعرية كانت ذات أهمية ،ولها دلالة علمية أو ثقافية معيّنة بين العلماء والمثقفين في تلك الفترة.

وعليه فإن وجود ظاهرة المنظومات والقطع الشعرية في أغلب الأعمال العلمية لمعظم العلماء الذين اشتهروا في منطقة توات جاء مواكبة لأنماط التأليف والنشاط العلمي والمفهوم الثقافي التي كانت سائدة بين أغلب العلماء في المنطقة العربية الإسلامية خلال الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها. ففي واقع الأمر إن الاهتمام بالنظم الشعري وتضمينه في متون الأعمال العلمية كان سائدا في إنتاج كثير من العلماء والكتاب والمؤرخين في المنطقة العربية خلال القرون الماضية، فهذه الظاهرة كانت بارزة في أعمال كل من أبي راس محمد بن احمد الناصر[39] (ت 1238 هـ / 1823 م) والشيخ زروق[40] (ت899هـ / 1493م) والشيخ مرتضى[41] (ت 1205هـ / 1790 م) وغيرهم.

ومن بين المظاهر التي يجد الباحث معالمها في أعمال أغلب علماء المنطقة خاصة الذين كانوا يميلون منهم إلى التصوف هي ظاهرة الاهتمام بكرامات المرابطين والأولياء وأصحاب البركة. فقلما يجد الباحث مخطوطا أو أوراقا من إنتاج علماء المنطقة يخلو من ذكر بعض الكرامات ومناقب بعض العلماء والمشايخ، وربما كان ذلك يعبر عن بعض المفاهيم الثقافية والمعتقدات التي كانت تسيطر على أذهان كثير من الناس في المجتمع العربي والإسلامي في تلك الفترة. إذ كانت للعلماء مشايخ الإسلام وأصحاب الطرق الصوفية مكانة خاصة بين عامة الناس وكان لبعض هؤلاء أيضا علاقة مميزة مع الهيئة الحاكمة.

هذه بعض المظاهر التي أمكن للباحث أن يستخلصها من مثل تلك الأوراق والمخطوطات المشار إليها فيما تقدم، ثم إن مثل هذه الوثائق تعطي مؤشرات حقيقية على أن هناك العديد من المصادر المهمّة ،والتي لم يتم استخدامها بعد من قبل الباحثين، والتي تستحق الاهتمام والبحث والدراسة، ومن ثم استخدامها في تطوير أبحاث ودراسات علمية حديثة عن المجتمع المحلي التواتي تتعلق بالنشاط العلمي وحفظ التراث وفي توضيح بعض جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية على حد سواء.

الإحالات والهوامش:

1. منطقة توات: تقع في الجنوب الغربي الجزائري، وتضم مجموعة من الواحات والقصور التي بنيت في مدد زمنية متعاقبة، و تعتبر توات مركزا من المراكز التجارية الهامة ،كما تعتبر حلقة وصل بين الشمال الإفريقي وبين السودان الغربي، يحدها من الشمال العرق الغربي الكبير ومن الجنوب هضبة رقان ومن الشرق هضبة تادميت ومنطقة تيدكلت وعرق الراوي وعرق شاش من الغرب وتبلغ مساحتها نحو 500 كلم^2، ينظر:

Rouire (L), "le sud. Oranais et le touat", B. S.G. A. D'oran, tome11, 1891, p 362 .

2. تعد الدراسة التي قام بها الأستاذ فرج محمود فرج حول إقليم توات تحت إشراف الدكتور أبوالقاسم سعد الله ،من أولى الدراسات والأبحاث الأكاديمية العربية حول تاريخ المنطقة السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي. وعلى الرغم من عموميات وسطحيتها، إلا أنها أحالت الباحثين من بعده في تاريخ المنطقة إلى المصادر والمراجع للتعمق أكثر في أبحاثهم ودراساتهم. يراجع: فرج محمود، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، المؤسسة الوطنية للكتاب وديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1977م.
3. فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص 85.

4. ينتسبون في الأصل إلى البيت العلوي وقد وفدوا إلى توات من شمال المغرب العربي وفي عام 1121 هـ / 1709 م قدم إلى توات الشريف أمبارك بن مولاي المأمون. رفقة ثلاثين فارسا فاستضافهم أهل توات. ورغم قلّتهم إلا أنهم كانوا يحظون باحترام الجميع والكل يطلب رضاهم.
ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، معلمه الصحراء، مطبوعات وزارة الأوقاف، المغرب الأقصى 1976م، ص 132. وانظر كذلك: فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص 13.

5. يراجع: مبروك مقدم، " المخطوطات داخل الخزانات الشعبية بقورارة و توات وتيديكلت"، أعمال الملتقى الثاني للبحث الأثري والدراسات التاريخية أدرار 29 ماي – 02 جوان 1994م ،وزارة الثقافة والاتصال، الجزائر 1994م، ص 75 ومايليها.
د.عبد الكريم عوفي،" مراكز المخطوطات في الجنوب الجزائري: إقليم توات نموذجا"، مجلة آفاق الثقافة، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ،دبي، السنة 09، العدد 34 ،الإمارات العربية المتحدة 2001 م،ص 113.

6. أود أن أعرب عن شكري وتقديري للأستاذ أحمد لنصاري، والشيخ العلامة محمد باي بلعالم ،والأخ عبد الحميد بكري، على تفضلهم بتزويدي بمجموعة من المخطوطات والوثائق المتعلقة بالإنتاج العلمي والنشاط الثقافي لبعض علماء توات الذين اشتهروا خلال الفترة المعنية بالدراسة.

7. تجدرا لإشارة إلى أن جل الإنتاج الفكري والأدبي والديني للفترة التي نحن بصدد دراستها قد ضاع من خزائن الإقليم وذلك بفعل عوامل الطبيعة القاسية والى عملية النهب أثناء دخول الاستعمار الفرنسي للمنطقة فقد أحصى (مارتن) كل الخزانات وحمل معه الكثير منها وألف كتابه الموسوم بـ: المغرب في أربعة قرون وقد اعتمد تلك الوثائق في تحرير معلوماته للتأكد والتحقق راجع كتابه:

A.G.P. Martin ; Quatre siècles d'histoire Marocaine
Au sahara de 1504 à 1902, Paris, 1923.

ونود أن نشر أيضا أن (مارتن) هو الذي رافق الحملة الفرنسية التي نزلت بتوات في مطلع القرن العشرين،وقد تأخر في طبعه لظروف ذكرها في مقدمة الكتاب.

8. ذكر صاحب جوهرة المعاني أنه منسوب إلى زمورة من أرض البرابر . ينظر: محمد بن عبد الكريم البكراوي، جوهرة المعاني في تعريف ما ثبت لدي من علماء الألف الثاني ،مخطوط بخزانة سيدي أحمد ديدي تمنطيط– أدرار، ص 28 (لم يحقق بعد). وفي اعتقاد الباحث أن هذا الكلام يحتاج إلى تدقيق لأن المعروف عن ابن أبّ ماكتبه هو عن نفسه محمد بن أحميد بن عثمان المزّمري نسبا التواتي مولدا ومنشأ. ينظر: محمد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطقة توات، ج1، دار هومة، الجزائر، 2005 م، ص 89 – 122. وانظر كذلك: سيدي عمر عبد العزيز، قطف الزهرات من أخبار علماء توات، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1985م، ص 53 – 54. مولاي أحمد الإدريسي الطاهري، نسيم النفحات في ذكر جوانب في أخبار توات، مخطوط بخزانة كوسام،أدرار، ص 158 (لم يحقق بعد).

9. **زاوية كنته:** تبعد عن مقر ولاية أدرار حاليا بـ 77 كلم إلى الجنوب وقد زادت شهرة هذه الزاوية في نهاية القرن 16 الميلادي ومطلع القرن 17م، نتيجة نبوغ أعلام كثيرون من قبيلة كنته التي استقرت بها في القرن الثالث عشر الميلادي. انظر: عبد العزيز بن عبد الله، مرجع سابق ،ص 112. مصطفى أبو ضيف ،أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، دار النشر العربية ،المغرب الأقصى،1982م، ص 269.

10. **تمنطيط:** كلمة أمازيغية (زناتية) تعني في اللغة العربية حاجب العين وكانت إحدى حواضر إقليم توات الثقافية التجارية خلال تلك الفترة وفي هذا الصدد يقول صاحب كتاب (القول البسيط):" تمنطيط اسم لمدينة في إقليم توات، وهي بها قاعدة اجتمع فيها العلم والإمارة والديانة والرياسة، وانتصبت بها الأسواق والصنائع والتجارات و البضائع. .. " انظر: ابن بابا حيدة، القول البسيط في أحبار تمنطيط، تحقيق فرج محمود فرج، تابع لأطروحة إقليم توات، ص 13 – 14.

11. **تيميمون:** تعتبر هذه المدينة إحدى الحواضر الثقافية والتجارية بإقليم توات وهي في الوقت ذاته عاصمة منطقة قورارة الواقعة في شمال الشرق لمنطقة توات الوسطى.

12. ينظر: الرحلة العلية ،مرجع سابق، ص 90. وانظر كذلك: أحمد جعفري، محمد بن أب المزّمري (1160 هـ) حياته وآثاره، دار الكتاب العربي، الجزائر 1425 هـ – 2004 م، ص. 64.

13. تراجم لبعض علماء ومشايخ الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني، مخطوط بخزانة تنيلان– أدرار، ص 40 وما يليها

14. وهي أرجوزة في التصريف لابن الحاجب (ت 646 هـ) وتوجد نسخة مخطوطة بخزانة الشيخ محمد باي بلعالم بأولف.

15. توفي رحمه الله سنة 953 هـ / 1546 م ودفن بقرية (بنطيوس) ببسكرة وقبره مازال يزار إلى اليوم.

16. هو أبو عبد الله محمد بن داود الصنهاجي الشهير بابن أحروم (ت 723 هـ)

17. وقد سمى هذه الأرجوزة بالاهنة المحجلة، وتوجد نسخة مخطوطة منها بخزانة الشيخ محمد باي بلعالم باولف – ادرار.

18. هو من أحد الأعلام البارزين بالزاوية البكرية رغم أن أصله من تنيلان إلا أنه برز بتلك الزاوية عند أخواله والتي ولد وترعرع بها وحفظ القرآن ولا زم خاله الحسن بن سعيد ،وأخذ عنه العلوم الدينية كالفقه والحديث والتفسير وعلوم اللغة العربية وآدابها ينظر: الحاج محمد العالم البكراوي، الدرة الباهية في الشجرة البكرية ،ص 55 (مخطوط بيد عبد الحميد بكري– مدرسة سيدي احمد ديدي بتمنطيط – ادرار)

19. المصدر نفسه، وانظر كذلك: فرج محمود فرج مرجع سابق ص 96. محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، ج1، ص. 218

20. ينظر: الرحلة العلية، مرجع سابق ،ص 173.

21. المرجع نفسه، ص 162.

22. عمر بن عبد القادر بن عبد الرحمان التنلاني، الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، مخطوط بخزانة الوليد بن الوليد–أدرار، ص 05

23. جوهرة المعاني، مصدر سابق، ص 04.

24. توجد نسخ عديدة (مخطوطة) من هذه الرحلة (لم تحقق بعد)، نذكر منها ما هو في خزانة باعبد الله بأدرار ،وخزانة علي سليماني بأدغا أدرار، وخزانة الشيخ سيدي أحمد ديدي بتمنطيط. وقد قام الشيخ عبد الرحمان بن عمر التلاني بعدة رحلات في سبيل طلب العلم خارج إقليم توات بغرض الاستزادة وربط السند العلمي فمنها ما كان لبلاد التكرو ومنها ما كان لمدينة أروان ،ومنها ما كان لحاضرة سلجماسة. انظر: محمد باي بلعالم، الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني، ط1، دار هومة الجزائر، 2004م ص 58 ومايليها

25. تعد هذه الرحلة مصدرا هاما للباحثين والدارسين في تاريخ المنطقة خلال تلك الفترة لأن الشيخ ذكر فيها جميع المسالك و الأماكن التي مر بها ،كما ذكر الرجال الذين التقى بهم فهي تعطي صورة لطبيعة المواصلات إلى البقاع المقدسة خلال تلك الفترة، وتبرز في الوقت ذاته مدى الجهد والمشقة التي كان يتحملها الحجيج في سبيل أداء فريضة الحج.

26. ينظر: الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، مصدر سابق ،ص 05

27. هذه القصيدة أوردها صاحب جوهرة المعاني في سياق ترجمة للشيخ المذكور.

28. هو الإمام العلامة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن محمد بن مسعود بن براهيم النحوي الشافعي الحلبي المشهور بالسمين ومن أبرز تآليفه إعراب القران وسماه: (الدر المصون في علم الكتاب المكنون) وللتوسع ينظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ،ج2 ،ص. 211 وانظر كذلك: العصن الداني، مرجع سابق، ص ص .53 – 54.

29. جوهرة المعاني، المصدر السابق، وانظر كذلك: الصديق حاج أحمد، التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 17 م – 20 م ،ط1، مديرية الثقافة لولاية أدرار، 2004 م، ص. ص 87 – 88.

30. رحلة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني، مخطوط بخزانة كوسام–أدرار، ص 1 وما يليها.

31. أورد الشيخ محمد باي بلعالم في كتابه (الغصن الداني) نص الإجازة كاملا ينظر: الغصن الداني، مرجع سابق، ص 37.

32. نسبه إلى قصر زاجلو وهو تابع حاليا لبلدية زاوية كنته هذه الأخيرة التي تبعد عن مدينة أدرار مقر الولاية بـ 77 كلم.

33. ينظر: الدرة الفاخرة، مصدر سابق، ص 16.

34. قام الشيخ محمد باي بلعالم بوضع شرح على هذه الألفية سمّاه: " ضياء المعالم شرح على ألفية الغريب لابن العالم "، وقد وجهها المؤلف لطلاب المدارس القرآنية والفقهية، وهذا العمل حاليا مطبوع في جزأين.

35. فرج محمود فرج ،مرجع سابق، ص. ص 88 – 89 .

36. الرحلة العلية، مرجع سابق، ص 95. وانظرکذلك: أحمد جعفري، مرجع سابق، ص. ص 79.–80.

37. المرجع نفسه.

38. ينظر: الغصن الداني، مرجع سابق، ص 73. وتحتوي هذه القصيدة على 20 بيتا

39. هو محمد أبو را س بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله ويصل نسبه حسبما ذكره إلى الحسن سبط علي وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ينظر: محمد أبو راس الجزائري: فتح الالة ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته ،تحقيق وتعليق محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1990م ص 25.

40. هو أبو العباس أحمد بن عيسى البرنوسي الفاسي المعروف بـ (أحمد زروق) أحد أعلام الفقهاء والمحدثين والمتصوفة من مؤلفاته شرح مختصر خليل و النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية،ولد بالغرب الأقصى،وتوفى سنة 899 هـ / 1494 م بمصراته، وفيها ضريحه. ينظر:علي فهمي خشيم،أحمد زروق والزروقية، طرابلس1980م،ص .ص 21–64.